التصوف بين النظر والممارسة
عند الشيخ أحمد زروق البرنسي

الأستاذ : بلخير عثمان
جامعة تلمسان

ملخص: تدور هذه الأفكار حول الانحراف الذي لحق بالتصوف ودور بعض العلماء في التجديد والتطوير والإصلاح، ويتناول سيرة الشيخ زروق وأهم ملامح الإصلاح الصوفي عنده النازع للاتجاه العملي .

مقدمة :

مر الفكر الصوفي بمراحل كثيرة ، جعلت منه مناهج شتى وطرقا متنوعة ، ولا إشكال في ذلك ما دام أنه فكر يقع في دائرة الفكر الإسلامي، وهي دائرة عاكسة لجهود بشرية واجتهادات تفاعلية مع الإطار المكاني والزماني والتواصلي ضمن نطاق الوحي .

إن مسيرة الفكر الصوفي ربما يكون قد اعتراها الكثير من السقطات سواء على مستوى الفكر أو مستوى الممارسة.

ويكون قد تعرض أيضا إلى المندد والمنتقد ما بين مقل ومكثر وموضوعي منصف وبين متحيز .

وكانت تجيء في كل عصر طفرة من العلماء من أهل التصوف تنفي عنه ما لحق به من تفريط و إفراط بل و تحمي مورده العذب الصافي من الأدعياء الذين انحرفوا به إلى مقاصد شتى وألوان كثيرة .

ومن بين هؤلاء الإمام أحمد زروق البرنسي الذي أبدع في رد التصوف إلى حقيقته ومقاصده التي نشأ فيها .

التعريف بالإمام أحمد زروق :

1 هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي، المغربي الأصل والنشأة، الذي اشتهر بزروق2. ولد يوم الخميس في الثاني والعشرين من محرم عام **846** من الهـجرة، وتوفيت أمه ثالث أيام ولادته، ولحقها أبوه قبل السابع ، فعاش ، رحمه الله، يتيماً في كفالة جدته أم أبيه واسمها فاطمة، وكانت امرأة فقيهة صالحة، ربت حفيدها منذ نعومة أظفاره على الإيمان والاستقامة وطاعة الله عز وجل، وقد تحدث الشيخ زروق عن دور جدته في تنشئته الصالحة في

كتابه» الكناش» فك تعليمها إياه الصلاة وهو ابن خمس سنين، وأنها أدخلته الكتّاب في تلك السن أيضاً، كما ذكر تعليمها إياه التوحيد والتوكل والإيمان والديانة بطريق عجيب على حد تعبيره.

- تعلمه ومحاضنه المعرفية :

وفي سن السادسة عشرة تحول، رحمه الله، إلى طلب العلم، وكانت جامعة القرويين حينئذ منارة العلوم الإسلامية بمدينة فاس (بلد الشيخ) تعج بكبار العلماء الشيوخ، فدرس بها الشيخ زروق بعض أمات المكتب في الفقه المالكي، وعلوم القرآن والحديث والتوحيد والتصوف والعربية. وكان ضمن قراءته تلك قراءته كتاب «الرسالة» لابن أبي زيد القيرواني على أستاذين شهيرين، قراءة بحث وتحقيق، كما وصفها هو. وقد قرأ على جماعة من العلماء علم القراءات بحرف نافه، وقرأ في التصوف والتوحيد: «الرسالة القدسية»، و»عقائد الطوسي»، و»التنوير».وأهم هؤلاء المشايخ تأثيراً عليه: الشيخ القوري، كما نلمح ذلك في كثرة نقله عنه في جميع مؤلفاته.

- رحلاته وسياحته الروحية والمعرفية :

في عام 875 من الهجرة»أي وعمره تسعة وعشرون عامً» توجه الشيخ زروق إلى الحج، وفي الطريق مر بمصر ، وأقام

بها عند عودته عاماً تَلْمَذَ خلاله لعدد من أعلام المشايخ في الحديث والفقه والتصوف؛ مثل : الحافظ السخاوي، ونور الدين السنهوري، وأبي العباس الحضرمي. وقد تأثر بالأخير كثيراً، كما يظهر من إشارته إليه في مواضع متعددة من مصنفاته.

وفي عام 877 للهجرة رجع الشيخ زروق من مصر متجهاً إلى المغرب، فأقام ببجاية في الجزائر، ثم رجع في عام 780 إلى وطنه بفاس، وحدثت له جفوة مع شيوخها ثم غادرها بعد أربع سنوات، ورجع إلى بجاية التي لم يستقر فيها طويلاً ، فغادرها إلى مصر حث جدد صلته بشيوخه القدامى.

وفي هذا الوقت صار للشيخ شأن كبير في العلم، وقدم راسخة في التربيـة والسلوك، فالتف حوله طلبة العلم، فآن له الأوان أن يبحث عنت دار إقامة ينتفع به فيها الناس ويتمكن من أداء رسالته العلمية على أفضل وجه، بعد أن نبذه قومه أهل فاس، فكانت مصراته7 الواقعة مائتي كيلومتر إلى شرق طرابلس الغرب بليبيا أسعد البلاد به، وكان ذلك عام 886 للهجرة. فطاب له فيها المقام ولقي من أهلها كل تقدير وترحيب وتزوج بها ، واجتماع وله الناس وأفادوا من علمه.

وفي عام 894 من الهجرة توجه الشيخ زروق إلى الحج، ومر بالقاهرة حيث ألقى بعض الدروس بجامع الزهر، ثم رجع بعد أداء فريضة الحج إلى مصراته، وقضى بها السنوات الأربع الباقية من عمره، وتوفي رحمه الله في الثامن عشر من صفر عام 899 من الهجرة، ودفن بمدينة مصراته في منطقة سمت على اسمه إلى اليوم.

- تراثه العلمـــــي :

ألف الشيخ زروق مؤلفات متنوعة في شتى الفنون والعلوم عكست تجربته العلمية الموسوعية. ومن هذه الفنون: الحديث، والفقه، وعلم الكلام، والتصوف وغيرها. وأغلب هذه المؤلفات في الفقه والتصوف مع رجحان كتب الفن الأخير.

يقول عنه الكتاب في «فهرس الفهارس»، واصفاً مصنفاته: «وكاتمه فغي تصانيفه كلها كلام من حرّر وضبط العلم، وعرف مقاصده، ودار التشريع، بحيث يُعَدُّ قلمه وعلمه وملكته قليلي النظير في المغاربة». كما يصفه الحجوي، في «الفكر السامي»: «كان من الطبقة العالية من المؤلفين،ذاباً عن السنة، قوالاً لحق،وهو آخر المحققين الجامعيين بين الفقه والتصوف،والمحتج به

عند الطائفتين».وتجدر الإشارة إلى أن الدراسات العلمية، التي تعرف بالشيخ وفكره قليلة جداً ونادرة. وأهم هذه الدراسات العلمية، ولعلها الوحيدة- فيما اعلم- التي أخذت الطابع العلمي القائم على التحليل والدراسة ، كتاب «أحمد زروق والزروقية» دراسة حياة وفكر ومذهب وطريقة للمفكر الليبي الأستاذ علي فهمي خشيم.3

2- ملامح التجديد عند الإمام زروق :

أ- تحرير البحث في البدع والمحدثات :

درس الإمام زروق الانحراف الذي ساد في الدين عموما والتصوف خصوصا ، دراسة معمقة أفضت إلى التقرير بأن هذا الانحراف كان يرتكب باعتباره من صلب الدين وجوهره , لا من باب الانحراف , وأيضا من جانب سوء تنزيل أحكام وأدلة الشرع على الواقع , فتنـزل الأدلة على غير مناطاتها فاهتم بالبدعة بحثا وبيانا على مستويين :

الفرع الأول : البحث في مسائل البدع فهما . وذلك من خلال تحرير مفهومها وأدلة تصنيف البدع واعتبارها ,

والرد على من ابتدع في الدين , ولاقى من ذلك صنوف التعب والإنكار .

وقد سلك – رحمه الله – في تحرير القول في البدع والمحدثات مسلكا مقاصديا ، فالمبتدع في دين الله عز وجل , ويتصرف في الشرع وفق أغراضه .

- **تشنيعه على أصحابها** : البـدعة مذمومة بإطلاق عنده ، فصاحبها يـحمل وصم اتهام الشـريعة بالنقصان , وتسلب الدين تـمامه ونقصانه , وقد قال الله تعالى : { اليومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ , وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي , ورَضِيتُ لَكُمْ الإسْلامَ ديناً } سورة المائدة 31 .

ويستدل في هذا الإطلاق السابق إلى نصوص نقلي وعقلية .

الفرع الثـاني : البحث في مسائل البدع تنزيلا .

فقد بحث الإمام زروق في البدع وبين أن من أهم أسبابها الانحراف في التنزيل , أكثر من الانحراف في الفهم ، ويظهر من كلامه على أن من أسبـاب الهوى المُـوقع للإنحراف في التصوف

والغلو في الدين ,تحريف الأدلة عن مواضعها وذلك « بان يرد الدليل على مناط , فيصرف عن ذلك المناط , إلى أمر آخر موهماً أن المناطين واحد .» وصرف الدليل عن مناطه له وجهان :

- أحدهما : وهو الاشتباه الواقع في تنزيل الأدلة الشرعية على وقائع الأفعال .

ثانيهما : التزام البعض تقييد المطلق بالمقيدات بما ليس له دليل على الخصوص , إذ المكلف مفتقر في أداء مقتضى المطلقات على وجه واحد دون غيره إلى دليل .4.

ب- التزام مبدأ التقعيد في التصوف جريا على عادة التقعيد الفقهي والأصولي :5

وذلك بتقعيد أصوله، وضبط مسائله، وشرح مصطلحاته ، وترجيح المختلف فيه ومحاولة تأصيل ذلك من الوحيين ثم أقوال الأئمة والعلماء من سلف الأمة. مع التأكيد على الحقيقة الثابتة: أن لا تعارض بين الشريعة والحقيقة، ولا تناقض بين الفقه والتصوف. وقد من خلاصة اجتهاده في تجديد

الفكر الصوفي على هذا المستوى والمحور في كتابه: «قواعد التصوف»

جـ - لا شك أن إحدى الوسائل في التربية عند الصوفية هي الممارسة وصحبة الأشياخ ، وقد مكنه ذلك من رسم طريق للمريدين والسالكين لطريق التصوف،بَيّن لهم فيه آداب السلوك ومعالم الطـــريق، محذراً من السلبيات والتجاوزات التي علقت به مع مرور الزمن .6

د- شرح كتب التصوف قام الشيخ زروق بشرح بعض كتب التصوف شرحاً علمياً روحيا، وأهم كتبه في هذا الشأن هو «شرح حكم ابن عطاء السكندري»7